نافذة

الحب والكينونة

حين يغمرها المطر وهي تلتحف ذاتها، وتسترجع ذكرياتها، وترسم غدها، تصبح أكثر جمالاً هي الكائن والمعشوق والمدينة والنقاء، كل شيء يصبح فيها أكثر جمالاً وأكثر طهراً تحتوي ما لا يحتوى، تتنفس لتحافظ على بقايا لا تكون إلا بها.. يغمرها الماء فتغمره بالحب، يصلها الثلج فتمنحه الطهر الأبدي، ومن بحة صوت، ومن شدو فيروز الشآمي، ومن ندائها على الحبق والمنثور تبدأ حكاية عشق جديدة هي الشام بتفاصيلها ونبلها وبقائها!

حين وحين.. تضج المدائن وتغيب عن الواقع، ووحدها مغمورة بالنبل والبقاء والافتداء، لا تأبه لحاقد أو جاحد، لا يعنيها ما يصل إلى سمعها من عبارات ثناء، ولا يطربها امتداح مادح لجمالها وفتنتها، وتبقى محتفظة بذاتها وألقها للحظة هي العيد ذاته، وهي الفرح ذاته، وهي الصدق الذي تخلى عن كل مكان إلا عنها! ترى كره الكارهين وتسخر، تسمع امتداح الكاذبين، وتشهد أن كذبهم يلتهمهم! هي من يقدّر صدق الحب والغناء، هي من يحدد مصدر ما قاله الشاعر فيها! تلفظ كل لحظة لا تنتمي إليها، فعاشت رائعة أبي خليل (يا طيرة طيري) وخلدت فيروز مع سعيد عقل وعبد الوهاب بـ(مرّ بي) وكانت أنشودة الخلود فيها (شآم أهلوك أحبابي) فرقص معاوية على عرشه، وتباهى الأمويون بملعبهم الذي كان لهم، وهو القادر على حفظ المدينة والانتماء والعرب، جعلوها العرب خلاصة ونقاء، ومنها شعت العروبة، لذلك لا تصيخ السمع لكل ناعق ونادب، فهي المدينة التي لا تحتوى..! هي التي تحتوي محبيها وكارهيها، وهي الجوادة على من أحبها ومن تظاهر بالحب، وهو يمور حقداً وكرهاً.. وحدها الراقية التي لا تمنع أحداً من القول، ولكنها تغربل كل شيء، ويدور الزمن فيها كما تشاء.. تلفظ القصيدة الشوهاء للشاعر الأشوه، وترفض اللحن الراقص الذي يحولها إلى كائن غريب، وتستخرج من ذاتها الألحان الجميلة التي دخلت في جوهرها، ويتناوب المبدعون، وتبقى رائعة أبي خليل القباني صلة الوصل بين الجد والحفيد للوصول إلى شام القداسة والطهر، القباب والمرابع، وكل ما يمكن أن يكون فيها، ولا يكون في سواها، هي مغرورة الروح، ولكن أين من يصل إلى عمق روحها، ويدلف على جسر من اللهفة والحب والحرص إلى جوهرها؟

هذا الدعي قال
وذاك المخبول صرخ
وثالث ملوث تلوّن

وحدها تستلّ من ذاتها سيمفونية البقاء، ونقبل أن تكون صاحبة القطعة الواحدة التي لا تتكرر، لأن مقاسها هو مقاس الحب، فإلى الحب الذي عجزنا عنه جميعنا، ولا يستثنى أحد من أبناء الزمن الأغبر، إليه نتوجه، وبه نلوذ، وحده يحفظ ما تبقى منا، وحده يبقي لنا قبراً وشاهدة فيها، وربما قبة رخامية، ولكن لن يحفظها هي، فهي الحب ومصدره وكينونته.

إلى أهدابها نسعى، حيث جدائل الطهر والنقاء مع مطر يحمل رائحة الأرض، لا عطر فيه ولا زينة سوى حسن شام.

إسماعيل مروة

الإذنّامة.. والموافقة على الزواج

منير كيال

قصد أسلافنا من مقولة الإذنامة، طلب موافقة المحكمة الشرعية على زواج الفتاة من الشاب.. فقد كانوا يعلقون هذا الطلب ببهو المحكمة الشرعية مدة لا تقل عن خمسة عشر يوماً لإطلاع معارف الشاب والفتاة (العروسين) على ذلك الطلب، وقد يعلقون ذلك الطلب بالمسجد القريب من منزل الشاب كما يعلقونه بالمسجد الأقرب لدار أهل الفتاة، كما يعلقونه عند مختار الجانبين.

والغرض من ذلك بيان اعتراض أي من كان من معارف الجانبين، على ذلك الزواج، إن كان بين الشاب والفتاة رضاعة أو كانت الفتاة على ذمة رجل آخر بموجب عقد غير مسجل بالسجلات الرسمية وهو ما يطلق عليه اسم: كتاب براني. كما يمكن أن يكون الغرض من ذلك بيان إذا كان على ذمة الشاب أربع زوجات إحداهن غير رسمية أي غير مسجلة بالسجلات الرسمية وذلك وفقاً للأعراف المعمول بها لدى عامة الناس.

كان أهل الشاب وأهل الفتاة يتحسبون من هذه الإذنامة، خوفاً من أن تكون عائقاً يحول دون زواج الشاب بالفتاة، نتيجة لما تحمله هذه الإذنامة من قيود. وخاصة ما كان يتعلق بالرضاعة بين الشاب والفتاة، فقد كان هذا الموضوع على نحو كبير من الأهمية. لأن الشريعة الإسلامية لا تقر زواج شاب بفتاة. إذا بينهما رضاعة من امرأة، أكانت هذه المرأة والدة للشاب أم كانت والدة الفتاة، أو امرأة أخرى أرضعت الشاب والفتاة، لأن الأولاد الذين رضعوا من تلك المرأة هم إخوة، وبالتالي لا زواج بين الإخوة.

وهذه الرضاعة متعددة المآخذ والأسباب فقد تكون أماً مرضعة لطفل نضب حليبها لسبب من الأسباب، فرضع ابنها من سيدة ترضع ابنة لها فيكون الطفل والطفلة إخوة بالرضاع، فلا يجوز لهما الزواج من بعض.

لكن ذلك لا يمنع زواج أبناء وبنات السيدة الأولى الآخرين من أبناء وبنات السيدة الثانية، لأن القاعدة الفقهية تقول: اترك الرضعي وخذ أخيه.

وكان زواج الشاب من ابنة عمه حق لهذا الشاب وهذا متعارف عليه، فكان لابن العم أن يقف حائلاً أمام زواج ابنة عمه من غيره، كما أن له الحق أن ينزلها من على ظهر الفرس أو الحصان الذي ينقلها إلى عريسها ليلة زفافها.. وبالتالي فقد كان لأهل ابن العم الاعتراض على ذلك الزواج، ولهم اللجوء إلى وجهاء الحي لمنع زواج تلك الفتاة من غير ابن عمها، ما لم يقم أهل الشاب المرشح للزواج منها بإرضائهم.

وعلى هذا فقد كان أهل الشاب وأهل الفتاة يتحسبون من تلك الإذنامة، خوفاً من أن تكون عائقاً يحول دون زواج الفتاة والشاب.

ولم يكن المهر (الصداق) معجله ومؤجله عائقاً لعقد الزواج، حتى إن من الأسر من كانت تتناسى موضوع البحث بهذا الأمر أسوة بقول رسول الله (ص): «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ولو على شق تمرة، لئلا تكون فتنة بالأرض وفساد كبير».

كما أن زواج المصلحة كان قليل الحدوث، فكان من المهور ما قدّر بالقروش والبارات وتحدثنا الوثائق التاريخية، أن المهر بمطلع القرن الرابع عشر كان بين (٣٠٠٠- ٥٠٠٠) قرش والمؤجل بين (٣٠٠- ٦٠٠) قرش للبنت البكر، وأقل من ذلك بالطبع للفتاة الثيب أو المطلقة.

لكن ذلك المهر أو (الصداق) أصبح على نحو آخر، بأول الحكم العثماني، وذلك نتيجة لما أصبح الناس من تفاخر وتباه بموضوع المهر، وذلك بتقليد أصحاب السلطة ومن والاهم من المبالغة بالمهور. الأمر الذي نجم عنه عزوف العديد من الشباب عن الزواج أو السعي للزواج من امرأة ميسورة على نحو محدود من حُسن الهيئة (الجمال) فقالوا بذلك:

يا آخذ القرد على ماله
بيروح المال وبيضل القرد على حاله.

يعتبر من الجيل الأول الذي أسس للدراما السورية وساهم في تكوين ملامحها وتطويرها

غسان جبري.. كان مجتهداً يبحث عن مسار مختلف مهما تشابهت بعض معالمه أو تعثرت بعض خطواته

وائل العدس

عاش ستة عقود في العمل الدرامي التلفزيوني المتصل، وقدم خلالها ما يزيد عن خمسين مسلسلاً تلفزيونياً، عدا السهرات. وهو كم كبير تحقق من خلال إنتاجات تلفزيونية تخطت حدود سورية إلى غيرها من المدن والعواصم العربية، حيث أنجز مسلسلات في عمان والكويت والإمارات العربية المتحدة.

يقول عنه محمد منصور في كتابه «دراما التأصيل الفني» الصادر عام ٢٠٠٩ عن دار كنعان للدراسات والنشر إنه استطاع من خلال المناهل الثقافية العديدة التي صاغت تجربتها وشخصيته الفنية، أن يكون اسماً بارزاً في بدايات الدراما التلفزيونية السورية، وأن يقدم لهذه الدراما أعمالاً اكتست اليوم صفة الكلاسيكية، لأنها كانت قادرة على الدوام، أن تمنحنا القدرة على تذوقها مجدداً، والاستمتاع بمضامينها وأفكارها وأشكالها، ضمن الحيز الإنتاجي والتقني الصعب الذي ظهرت فيه وتبلورت من خلاله.

لقد كان غسان جبري أستاذاً من أساتذة الإخراج التلفزيوني داخل الاستديو، وقد شغف إلى حد كبير في اكتشاف إمكانيات العمل المتاحة ضمن جدران ذلك العمل المغلق، وفي إغنائه بجماليات فنية وتعبيرية جعلت منه فضاء مفتوحاً على الحالة الدرامية التي يتفاعل فيها الممثل مع الكلمة والكاميرا والإحساس والفكرة، لقد صنع ريادة موازية لريادة المتميزين من أبناء جيله.. لم يكن تلميذاً يتعلم من زملائه، بل كان مجتهداً يبحث عن مسار مختلف مهما تشابهت بعض معالمه أو تعثرت بعض خطواته.. ولئن ضاعت ملامح هذه الريادة في خضم المقارنات حيناً، أو إهماله لتاريخه حيناً آخر.

إنه المخرج السوري غسان جبري الذي فارق الحياة يوم الخميس الماضي في مسقط رأسه بدمشق عن عمر ٨٦ عاماً متأثراً بمرضه، وهو أحد كبار وأوائل مخرجي الدراما السورية، ويعد من كبار وأوائل مخرجي الدراما السورية، ومن رواد العمل التلفزيوني في سورية وأحد المؤسسين له، ولم يترك مجالاً فنياً إلا وعمل فيه، فأعدّ وقدّم البرامج التلفزيونية وأنتج أوائل المسلسلات.

ويعتبر واحداً من الجيل الأول الذي أسس للدراما السورية وساهم في تكوين ملامحها وتطويرها، وهو ما جعله مواكباً لمسيرة هذه الدراما وعارفاً بواقعها وإنجازاتها وخصوصيتها.

مسيرة غنية

ولد جبري في ٣ أيلول من عام ١٩٣٣ في حي الشعلان في دمشق، وكانت الأسرة قبل ذلك تسكن في بيت الجد في الشاغور (أصبح الآن مطعماً مشهوراً يحمل اسم «بيت جبري»)، ولكن الجد اضطر لبيع البيت لابن عمه بسبب ضائقة مالية.

والده ابن تاجر دمشقي كبير، درس في «كلية سان مارك» في الإسكندرية حيث ولد، فتربى غسان في المدارس الفرنسية هو وإخوته إذ يقول: «كان والدي مولعاً بالثقافة الفرنسية، ويتحدث لغتها كأهلها.. التقى بأمي، البنت الشامية المستورة وتزوجها».

كان جده من كبار تجار القطن، وكان يملك منازل عدة في دمشق، وبيروت، وحيفا والإسكندرية، لكن في عام ١٩١٧، أعلن هذا الجد إفلاسه بعدما راهن على انتصار ألمانيا في الحرب، فحول ليراته الذهبية إلى عملة ألمانية.

هكذا، عادت الأسرة إلى دمشق، وعانت بعد ذلك الفقر، لكنها لم تتخل عن طموحاتها في التعليم والانفتاح على الحياة العصرية بكامل تجلياتها في الفن والثقافة والسياسة.

أما الجدة، فقد استشهدت في عام ١٩٣٦ على أيدي الفرنسيين، حيث اغتيلت لأنها كانت تساعد ثوار الغوطة ضد المستعمر وهي في السادسة والخمسين من عمرها.

الظروف المالية والسياسية التي عصفت بسورية ما بين الحربين، جعلت غسان وإخوته «سبع بنات وثلاثة صبيان» - يختارون العلم طريقاً وحيداً للخروج من كل الأزمات.

درس الابتدائي في مدرسة طارق بن زياد في حي المهاجرين، ومدرسة إبراهيم هنانو في منطقة الجسر الأبيض، ومدرسة معاوية في المرجة، ثم انتقل إلى التجهيز الأولى وحصل على الشهادة الثانوية، وبعدها سجل في الجامعة السورية كلية الآداب، ثم انتقل إلى كلية الحقوق، وعُيّن موظفاً في البريد.

ومع انطلاق البث التلفزيوني عام ١٩٦٠، أدرك هدفه في الحياة: «تعطّل عقلي، أنا خلقت للعمل في هذا المجال، في هذا السحر الذي يسمى التلفزيون».

هكذا، تقدم إلى مسابقة للإخراج في التلفزيون السوري حيث قُبل عام ١٩٦١، وأُرسل إلى ألمانيا في دورة تدريبية استمرت ستة أشهر، لكنه قبل العمل في التلفزيون، كان عضواً مؤسساً في «ندوة الفكر والفن» عام ١٩٥٨ بإدارة رفيق الصبان وعضوية مجموعة من المثقفين الكبار على رأسهم صلحي الوادي ويوسف حنا وجورج طرابيشي.

عمل مخرجاً مساعداً مع رفيق الصبان في مسرحية «ليلة الملوك»، و«أنتيغون»، و«يوليوس قيصر».

وبعد انتقاله إلى التلفزيون، لم تنقطع صلته بالمسرح. شغل جبري مناصب كثيرة في التلفزيون السوري، من رئيس دائرة التمثيليات إلى رئيس دائرة المخرجين وكُرِّم في العديد من الدول العربية والأجنبية.

وعلى رغم ما قدمه إلى الدراما السورية، كان إلى ما قبل وفاته لا يعرف الرضا عن ذاته، فالرضا معناه الإفلاس حسب قوله.

يقول: «نحن جيل مدني مثقف، جاء من أصول عائلية عريقة». اختياره مهنة الإخراج كان له وقع غير محبّب في تلك الأيام، إذ كان يُنظر إليها كمهنة وضيعة: «اليوم، صارت العائلات تفتخر إن كان أحد أبنائها مخرجاً، نحن من جعلنا هذه المهنة محترمة، رسمنا ملامح الدراما السورية في بداياتها الأولى».

أعماله الكبيرة

قاربت أعمال جبري من خمسين مسلسلاً، وأفلام تلفزيونية درامية ووثائقية تجاوزت الثلاثين، وعدد من المسرحيات، فأنتج أوائل المسلسلات التاريخية والشامية والاجتماعية وغيرها، وقدم أول عمل بدوي للتلفزيون وهو «وضحة وابن عجلان».

من أعماله الدرامية «الدولاب» و«حكايا الليل» ١٩٧٢ و«انتقام الزباء» ١٩٧٤ و«حياتنا» ١٩٨٠ و«طبول الحرية» ١٩٨١ و«بقايا وجوه» ١٩٨٤ و«علاء الدين أبو الشامات» ١٩٨٥ و«لك يا شام» ١٩٨٩ و«السيرة العربية» ١٩٩٢ و«طرائف أبي دلامة» ١٩٩٣ و«القيد» ١٩٩٦ و«عطر البحر» ١٩٩٧ و«النصية» و«الطير» ١٩٩٨ و«صور ضائعة» ٢٠٠٣ و«العودة القاتلة» ٢٠٠٤ و«أعيدوا صباحي» ٢٠٠٥ و«الحب كله» ٢٠١٤.

بين الحقيقة والخيال

عام ٢٠٠١، ورداً على سؤال حول غرق أعماله في المثالية، كما في «القيد»، واتهام أعمال أخرى بالرمزية المتعالية على المشاهد كما في «النصية» أجاب: «روعة الأداء الدرامي أن يكون بين الحقيقة والخيال، أنا أوافق على التطهر الوارد في «القيد»، لكن الضجة التي أحدثها العمل أغنتني عن كل نقد. أما في «النصية»، فكان هناك هذه الرمزية المخبأة حتى اللحظة الأخيرة. المجتمع السوري، وبالذات دمشق، قائم على الطبقة الوسطى، وسرقة النصية والعمل على دمارها سيؤدي إلى دمار المجتمع الشامي، وبالتالي، إلى جنون من سبب هذا الانهيار. هناك ضرورة يرميها العمل الفني ويجر المشاهد إلى التواصل معها. هذه اللعبة تضمن المشاركة، على العكس من الأعمال الإملائية التي كثرت هذه الأيام، كثيرة هي الأعمال التي تعطل العقل العربي وقليلة هي التي تدفعه إلى التفكير والاختيار.

> رغم كل ما قدمه فقد كان إلى ما قبل وفاته لا يعرف الرضا عن ذاته

العرض الرمضاني

قبل حوالي عشر سنوات، تحدث جبري عن مشكلة العرض الرمضاني لإحدى الصحف العربية قائلاً: «رغم كل الاستغاثات والنداءات التي نطلقها منذ سنوات، من أجل ألا يعرضونا لهذا الزخم الدرامي المرهق واللاإنساني في مشاهدة هذا الكم من الأعمال في وقت واحد، وقعنا في نفس الفخ... وأعتقد أن العامل الأساسي هو تجاري بحت، بسبب أن معظم المحطات تسدد ما عليها بمجرد عرض العمل، والعرض في رمضان له مردود إعلاني لا يفوت، ولا يعوض في باقي شهور السنة.

وأضاف: «وقد نتج عن التفكير بالعرض الرمضاني بهذه الكثافة، زيادة عدد حلقات المسلسلات واللجوء إلى ما يسمى (المطمطة) في سبيل الحصول على الثلاثين حلقة، وربما على ما يزيد من أجل الاستحواذ على اهتمام المشاهد خلال الشهر، ورضا المعلن في اجتذاب المشاهدين لمتابعة إعلاناته على هذه الشاشة أو تلك، أثناء عرض مسلسله أو مسلسلاته المفضلة».

وأردف: «ظاهرة تفصيل المسلسل في ثلاثين حلقة بدأت على استحياء أواخر السبعينيات من القرن الماضي في الدراما المصرية، لكنها تأخرت في سورية حتى نهاية الثمانينيات... إذ لم تكن لدينا الخبرة الكافية لصناعة مسلسلات الثلاثينيات، ولم تكن لدينا كوادر فنية كافية لتغطية هذا الكم الكبير للإنتاج الدرامي... إلا أن الأمر اختلف مع تحول رمضان إلى موسم أساسي للعرض، وهنا يمكن القول إن ثورة العرض الرمضاني بدأت في أوائل تسعينيات القرن العشرين وكان التفوق فيها للدراما المصرية، ثم أصبحت الدراما السورية منافساً قوياً وشرساً على الساحة العربية منذ موسم عام ٢٠٠٠.

وأكمل حديثه عن الأعمال الرمضانية قائلاً: «هناك أكثر من ظاهرة، أولها طغيان الإنتاج التجاري الذي يضع هم التسويق في رأس أولوياته، ومن دون التفكير بما يريد أن يقوله العمل بالضرورة، وهذا يجعل صناع العمل يفكرون في التنازلات قبل أن يفكروا فيما يريدون قوله وكيف، ويسعون بالتالي لإنتاج وإخراج أعمال على الموضة، يعني للعام الثالث على التوالي، ومنذ النجاح المدوي للجزء الثاني من مسلسل (باب الحارة) ونحن نرى أعمالاً تسعى لركوب الموضة، كل هذا يؤدي إلى الملل وإلى فقدان العمل الناجح لبريقه، والمفارقة أن (باب الحارة) نفسه بسبب هاجس تقليد الأعمال الأخرى له، وقع ضحية هذه الموضة، وصار يكتب من أجل المنافسة وليس من أجل قول شيء جديد ومهم.

ورأى أن الظاهرة الأخرى المزعجة أيضاً هي استهلاك الفنان السوري لنفسه من خلال المشاركة في أكثر من عمل أو عملين في كل موسم، كنا نقول دائماً إن الفن الدرامي التلفزيوني القائم على حلقات تعرض يومياً يحرق الممثل... فكيف إذا كان الممثل يشترك في أربعة أو خمسة مسلسلات في وقت واحد؟

البيئة الشامية

بطبيعته كان المخرج الراحل مهتماً بصورة دمشق في الدراما، وعليه علق على أحد المسلسلات التي عرضت عام ٢٠١٠: «بأسف شديد لم تدرس الوثيقة التاريخية بشكل جيد، إن مشاهد سوق الناس إلى (الأخد عسكر) لم تكن بهذه الديمقراطية واللطافة التي ظهرت عليها في البداية. كانت الأمة كلها تعتبر من عبيد السلطان، وقد ذكر لي والدي وجدي كيف كانت تساق الناس إلى حروب في أماكن بعيدة كحرب الروملي وشبه جزيرة القرم، ليموتوا في أرض لا ناقة لهم فيها ولا جمل... وعلى العموم يمكننا أن نرجع إلى مصادرنا التاريخية الموثوقة ككتاب (سقى الله حي الوردات) ورواية (بيت جدي) لألفة إدلبي، و(دمشق في مطلع القرن العشرين) لأحمد حلمي العلاف.

معلومات عامة

- المخرج الراحل متزوج من الفنانة التشكيلية المعروفة أسماء فيومي.
- هو أول مخرج دعي من أغلب المحطات العربية: الأردن، الإمارات، الكويت، لبنان، أثينا، لندن، قطر، السعودية.
- هو أول مدرّس في المعهد التابع لجامعة الدول العربية، وأول من درّس تقنيع الإذاعة والتلفزيون في المعهد العالي للفنون الدرامية.

جوائز وتكريمات

حصل المخرج الراحل على الكثير من الجوائز والتكريمات منها:
- شهادة تقدير من نقابة الفنانين ١٩٩٣.
- شهادة تقدير من وزارة الإعلام بمناسبة عيد التلفزيون.
- شهادة تقدير من وزارة الإعلام بمناسبة الحركة التصحيحية.
- شهادة تقدير من مهرجان بغداد ١٩٧٢ عن تمثيلية «الغرباء لا يشربون القهوة».
- كُرم في يوم وزارة الثقافة السورية عام ٢٠١٧.

رثاء إلكتروني

حسن م يوسف: الإنسان الفذ الدمث، المخرج الفنان المبدع، السوري الوطني المخلص، غسان جبري سيبقى عطرك يضوع فينا ما بقينا، لك رحمة السماء ولذويك ومحبي فنك أحر العزاء.

سلاف فواخرجي: رحم الله المخرج السوري الكبير غسان جبري والعزاء لعائلته وأصدقائه ومحبيه.

شكران مرتجى: نزع القيد وحلق كالطير إلى السماء، المخرج الكبير والأستاذ غسان جبري، أحر التعازي للسيدة أسماء فيومي زوجته ولمحبيه وزملائه ولنا جميعاً وداعاً أيها السوري المعتق.

جيهان عبد العظيم: وداعاً غسان جبري، من أنقى وأرقى المخرجين الذين عملت معهم، لروحك الرحمة يا نقي.

وائل رمضان: أستاذنا غسان جبري، وداعاً.

مازن طه: وداعاً للصديق المخرج غسان جبري أحد أبرز رواد الدراما السورية والعربية، أتقدم بأحر عبارات العزاء لعائلته وللأسرة الفنية السورية.

محمد زهير رجب: المخرج الأستاذ غسان جبري أحد المؤسسين للدراما السورية يرحل بصمت.. وداعاً.. رحمك الله.

من مسلسل «الطير»

كيف تراجع الإنتاج الثقافي العربي؟

د. رحيم هادي الشمخي

في بداية القرن العشرين، كان واضحاً الدور الكبير المنوط بالمثقف العربي، منتج المعرفة والإبداع، كانت الطبقة الوسطى، تطمح إلى إعادة التوازن بينها وبين الغرب المستعمر، واثقة من قدرتها على مزاحمته، وتدشين ثقافة حديثة وتأسيس الرواية والنحت الحديث، والفنون التشكيلية، والعمل على تأكيد الحرية الأكاديمية مع إعادة تأكيد هويتها التي تجلت في ازدهار نشر التراث وتحقيقه، وازدهار مدرسة الأدب، وتجديد الموسيقا العربية، في مرحلة ما بعد الاستعمار وصعود الإيديولوجيا الكفاحية التي تحدد دور المثقف في تعضيد النضال ضد الاستعمار والدعوة إلى قيم التصنيع، واللحاق بأوروبا وتجاوزها من خلال دمج المثقف في مؤسسة الدولة البيروقراطية التي أسرفت في (أدلجة الثقافة).

في سياق مثل هذا لابد أن يتراجع الإنتاج الثقافي العربي، مات المسرح، من دون حتى إتاحة مأتم له، ومازالت السينما تحشرج حتى الرواية والشعر تراجع إنتاجهما، وكلما بزغ في الأفق شيء بشيء مختلف وتدفأ مهده بطريقة من الطرق التي يصعب حصرها منذ سنوات بدأت حيوية في قصيدة النثر، تبشر بشيء لكن سرعان ما خففت كل شيء، هاجر النقاد والشعراء، واعتلى المنبر مدرسو العروض من النظامين، ومن يشك أقول: عليه أن ينظر فيما ينشر للناس، نحن نعيش على ما أبدعه طه حسين وإدريس وجاهين وعبد الصبور ومحفوظ، وبعض الترجمات التي تخرج من المطبعة إلى المخازن، وأصبح من النادر أن تعثر على كتاب قيم، أسأل نفسي كم دراسة أكاديمية في تخصصي قرأتها هذا العام، ولكن وللأسف تراجع الإنتاج الثقافي في الوطن العربي، في السنوات الأخيرة في الميادين كلها، الرواية والشعر والنقد الأدبي والفكر والمسرح والسينما، سنة وراء سنة يتضاءل هذا الإنتاج ويضعف وينزوي، ويرحل الجيدون من المثقفين، من دون أن ترفد الثقافة بمن يحلون محلهم، كثيرون سيمتعضون من كلامي، بل قد ينبري بعضهم للذود عن شرف عروبتهم الثقافي مشيراً إلى شخص آخر، أو كتاب ظهر هنا أو هناك لكن ذلك استثناء يؤكد القاعدة، الواضح أن الإنتاج الثقافي العربي يتراجع يوماً وراء يوم، وأن السلعة الثقافية العربية توغل في ضعفها وتهافتها، ثقل قيمتها التبادلية والاستعمالية والرمزية، ولا أحد يريد أن يتوقف قليلاً، لكي يتساءل عن الأسباب، إنهم يفتعلون معارك تنتمي للخمسينيات.

مثقفون يصمتون كما يجري في وطنهم العربي من ويلات واحتلالات أميركية وأطلسية ومؤامرات تحاك للعرب ومنها سورية العربية، وهناك مثقفون يبحثون عن متنفس لهم خارج الحدود، ونحن نوغل في الصمت واليأس، نبحث عن صوت جديد يأسرنا أو عن كتاب جديد يهز هذا الوهم الذي تحول إلى موات ثقافي لكننا نعود ونتذكر أن كل شيء حولنا يدفع إلى الفقر المادي والروحي، كيف ينتج إنتاجاً رفيعاً، هؤلاء البؤساء الذين يقضون يومهم بحثاً عن الرزق وتحايلاً على الوحوش غير المرئية التي ترفع سبابتها تحذيراً وزجراً ووعيداً، هل عقمت مجتمعاتنا وأضحت عاجزة عن إفراز مبدعيها؟ هل صارت وحوشاً متعددة الرؤوس والأذرع؟

هل تعب المثقف العربي وصمت لأنه لا يجد من يقرأ عليه مزاميره؟